

معايير الصدق والثبات في البحوث الكمية والكيفية

فضيلدليو*

المخلص

من المعروف ان الدراسات في العلوم الاجتماعية قد تصنف ، تبعا لمؤشر طبيعة البيانات المستخدمة ، إلى بحوث كمية وبحوث كيفية. وانه يمكن القول: إن معايير الصدق او الصلاحية والثبات - في الاصل - خاصة بالبحوث الكمية ، لكن هذا لا يعني ان البحوث الكيفية مجردة تماما من ادنى درجات الموثوقية والقوة العلمية ، بل هي كذلك تتوخاها في حدود طبيعتها الكيفية. ويستهدف هذا المقال عرض لهم معايير الصدق والثبات في البحوث الكمية (الصدق الداخلي والخارجي ، وصدق بنية المحتوى او المفاهيم الاساس ، ومعاملات الثبات الإحصائية...) ، ولكن مع التركيز لكثير على المستعملة منها في البحوث الكيفية ، بحكم حداثتها والجدل المستمر حول مدى حصافتها: (الصدق الوصفي ، والتاويلي ، والنظري ، والتاريخي... والتشبع المعلوماتي والتقاطع الثلاثي...).

الكلمات المفتاحية: الدراسات الكمية ، الدراسات الكيفية ، معايير الصدق والثبات ، الموثوقية.

Résumé

Les études en sciences sociales peuvent être classées selon la nature des données utilisées en études quantitatives ou qualitatives. Et on pourrait faire valoir que les méthodes d'évaluation de la validité ou de la fiabilité soient - à l'origine- spécifiques à la recherche quantitative, mais cela ne signifierait pas que ces critères d'évaluation ne soient pas utilisés dans les études qualificatives. Elles les utilisent suivant la nature qualitative de ses données.

Dans cet article, nous souhaitons passer en revue les différentes méthodes d'évaluation dans les deux types de recherche, mais l'objectif principal de ce travail est de montrer que ces méthodes existent aussi dans une version qualitative et qu'elles sont nombreuses : descriptive, interprétative, communicationnelle, théorique, historique ...par saturation ou triangulation, etc.

Mots clés : Étude Qualitative, Étude Quantitative, Méthodes D'évaluation, Validité, Fiabilité.

Summary

Studies in the social sciences can be classified according to the nature of the data used in quantitative or qualitative ones. It could be argued that the assessment of the validity or reliability methods are specific to the original quantitative research, but that does not mean that these evaluation criteria are not used in the qualitative studies. They are used according to the qualitative nature of the data.

In this article, we wish to review the different evaluation methods in both types of research, but the main objective of this work is to show that these methods also exist in its qualitative version and that they are numerous: descriptive, interpretative, communicative, theoretical, historical, by saturation or by triangulation...etc.

Keywords: Qualitative Research, Quantitative Research, Evaluation Method, Validity, Reliability.

* أستاذ التعليم العالي كلية علوم الإعلام والاتصال والسمعي بصري ، جامعة قسنطينة 2

مقدمة

مختلفة ماهية المعرفة وعملية إنتاجها وكيفية تقدير صدقها وثباتها:

- المدخلان "التقليديان": المادي التاريخي والوضعي ، بالإضافة إلى التوليبي "المستحدث".

- المدخلان: المنطقي-الوضعي (الوامبريقي التحليلي) والنقدي / الجدلي ، بالإضافة إلى الرمزي-التوليبي (التفاعلي).

- المدخلان: الامبريقي-الاستقرائي والعقلاني-الاستنباطي ، بالإضافة إلى الاستبطاني-التعايشي.

- المدخل الوضعي ، والوضعي المحدث ، والبنائي-التوليبي ، والنقدي-الايديولوجي¹.

مع ملاحظة إن هناك من يعوض النقدي بالبراغماتي ، كما إن هناك من يضيف في محيطنا الحضاري المدخل الإسلامي بمنهجيته التكاملية (الاستقرائية-الاستنباطية) المعتمدة على أعمال الرازي والشاطبي... وخاصة ابن خلدون الذي استقى "منهجيته الجديدة من العلوم الاستقرائية مثل علوم الحديث ، ومن العلوم القياسية (الاستنباطية) مثل اصول الفقه. وقد طبق هذه المنهجية التكاملية في ميدان التاريخ"².

وفيما يلي جدولان تصنيفان (عام وخاص) لبعض المداخل الابستمولوجية الموجهة ، ولبعض مستلزماتها المعرفية والتطبيقية البحثية:

تصنيف متعدد الابعاد للمداخل الابستمولوجية³

المدخل	طبيعة المعرفة	المنهج الابداعي	المنهج التقابلي/بالمقارنة	اللغة	موضوع الدراسة
امبريقي-استقرائي	تمثيل نماذج عن الانتظامو التكرار. المعرفة عملية ابداعية	استقراء	تجريب	عمليات حسابية	علاقات سبب-نتيجة تكرار احداث.
عقلاني-استنباطي	نمذجة عمليات ابداعية. المعرفة عملية ابداعية	استنباط	تحليل منطقي-شكلي وتجريبي	منطقية-رياضية	اشكال بنوية عالمية
استنباطي-تعايشي	بناء رمزي ذاتي للعالم الاجتماعي والثقافي. المعرفة تنتج عن عملية الفهم	استبطان/تأمل مع معايشة	توافق تجريبي	لفظية اكااديمية	رموز ، قيم ، معايير ، معتقدات ، اتجاهات

ملاحظة: المدخل الثالث انسب للبحوث الكيفية ، بينما يشيع استخدام سابقه في البحوث الكمية.

المصدر: *Maria José Sosa Solórzano* 2006

تصنيف موجز لبعض مرجعيات المناهج الكمية والكيفية⁴

الابستولوجيا	الانطولوجيا (ماهية المعرفة)	النظرية	كمية
وضعية	موضوعية	استنباطية	كمية
تأويلية	بنائية	استقرائية	كيفية

المصدر: M.:2012, 165. Atkinson

ملاحظة: قد تكون بعض مرجعيات المناهج الكمية استقرائية أيضا وبعض مرجعيات الكيفية استنباطية تأملية أساسا ، كما يتضح من الجدول السابق لـ (Solórzano).

في لن واحد، على مكوني موضوع البحث (الباحث والمبحوث/ الفاعل الاجتماعي) وبالبناء التعاوني للمعرفة. وفيما يلي تفصيل ذلك:

1- معايير الصدق والثبات في البحوث الكمية

بداية ، يمكن القول ان الصدق يشير إلى درجة استقلالية الإجابات عن الظروف العرضية للبحث ، ومن ثمة إلى مدى صلاحية أداة جمع البيانات لقياس ما وضعت لقياسه ، لان الصدق يرتبط أساسا بقابلية تكرار التجارب والاكتشافات العلمية ، ولن يتأتى إلا بعمليّة وادوات جمع بيانات ومعالجة إحصائية مناسبة ؛ اما الثبات فيشير إلى الانتظام لو إلى الحد الذي يتم فيه فهم نتائج المقياسفهما صحيحا ، اي بمدى دقة النتائج وعلو درجة التوافق في حالة تكرارها ، في وقت آخر من طرف باحث آخر ، ومن ثم قابلية تعميمها.

وترتبط معايير الصدق والثبات ارتباطا وثيقا (نظريا وإجرائيا) بالبحوث الكمية نتيجة حاجتها الهامة لها ، لذلك فهي ملازمة لها دائما وتستجيب عادة لمبادئ المدرسة الوضعية (Positivism) في العلوم الاجتماعية ، ومنها: القابلية للتحكم ، والتكرار ، والتنبؤ ، والملاحظة ، والتجزئة ، والعزل عن السياق وعن الذات الباحثة...

ويمكن تشخيص الفكرة الأساس لهذه المدرسة كالآتي: إذا قمنا باختبار فرضية من خلال معطيات ميدانية تمت بلورتها بفضل عمليات حسابية وتحليل إحصائية (مثل التحليل العاملي ، ومعاملات الارتباط...) ، وإذا كانت النتائج "الرقمية" لهذه العمليات تؤكد او تنفي الفرضية الأصلية ، حينها يحق لنا ان نقول إننا قمنا بعمل علمي (صادق وثابت).

ومما سبق يمكن استنتاج ان البحث الكمي ينبع من الفلسفة الامبريقية الوضعية ، وتعد الواقع قابلا للتشيع والملاحظة والقياس ، وان البحث الكيفي انطلق من الفلسفة الاستنباطية التأملية او الباراديغم الرمزي التأويلي ، وانتشر بداية في مجالي الانثروبولوجيا والتاريخ فبقية العلوم الاجتماعية ، ناظرا إلى الواقع ككل متعدد غير قابل للتجزئة بل للفهم والبناء الديناميكي والتفاعلي⁵.

وفي هذا السياق يعد "كابلان" (Kaplan)⁶ بان هناك ثلاثة مظاهر اساس للفرقة بين المنظورين الكمي والكيفي: 1- "التفسير / الفهم" ، 2- "الخصائص / الذوات" ، 3- التجريد مقابل التحديد(المجرد / المحسوس).

كما يمكن ، عادة ، تقدير هذه الفرقة بعرفة مدى قربنا لو بعدنا من الباراديغم الوضعي ، ومن استخدام لغة الحساب والرياضيات. وهناك بعض الاسئلة جديرة بال طرح ، منها: هل الظاهرة المراد دراستها قابلة للقياس الكمي ، ومن خلال مؤشرات إجرائية؟ وهل المعلومات التي نحصل عليها بهذه الطريقة دقيقة وصادقة وثابتة؟ ... فإذا كان من الممكن الإجابة على هذينالسؤالينايجابيا ، فمن المرجح اننا سنكون بصدد بحث كمي.ولذلك ، يمكن القول ان معايير الصدق او الصلاحية (Validity/ Validité) والثبات (Reliability/ Fiabilité) هي في الاصل خاصة بالبحوث الكمية ، لكن هذا لا يعني ان البحوث الكيفية مجردة تماما من ادنى درجات الموثوقية والقوة العلمية ، بل هي كذلك تتوخاهما في حدود طبيعتها الكيفية. فافتراضاتها الفلسفية والنظرية تستلزم معايير مختلفة لتقييم نوعيتها وصدقيتها ، كما ان مدى صرامتها يعتمد على الانسجام بين الاهداف البحثية ومنطقاتها الباراديغمية (التأويلية ، والتفاعلية الرمزية...) وذلك بالتركيز ،

ولذلك يمكن القول ان الصدق الداخلي يخص عينة الدراسة فقط والصدق الخارجي يتعداها إلى مجتمع الدراسة او مجتمعات اخرى.

ولما صدق المحتوى او المفاهيم ، فيقصد به اساسا "إجرائيتها" المؤدية إلى حسن قياسها او قياس مؤشراتنا الواقعية. لي ان اداة جمع البيانات تغطي كل المجالات المستهدفة تغطيتها. ومن طرق تقييمها: صدق الملاحظات ، التمايز-Discrimination- (تأكيد وجود اختلاف بين خاصيتين لو اكثر في الظاهرة موضوع الدراسة باستعمال ادوات قياس مختلفة) ، التلاقي-Convergence- (تأكيد وجود خاصية ما باستعمال اداتين مختلفتين) ، التعسف (الهادف)... والصدق النسقي⁸.

وتجدر الإشارة في الاخير إلى انه عادة ما كان يلجأ ، ولا يزال احيانا ، إلى اختبار صدق ادوات جمع البيانات عموما بالاستعانة بداية وقبل كل شيء ، وكذا "ضعف الإيمان" بـ الدراسات الاستطلاعية (كتحكيم ميداني لادوات جمع البيانات) ،

- اعتماد تحكيم الخبراء لاداة جمع البيانات (الاستمارة ، مثلا) ، مع حساب التناسق بين لرائهم في مكوناتها ، لو على الاقل الاكتفاء بتقدير ذاتي لمدى حصافة ملاحظاتهم بالاعتماد على المنطق الشخصي للباحث والمشرف على البحث.

- بالنسبة للثبات: تذكر الادبيات المتخصصة عدة انواع لقياس ثبات ادوات جمع البيانات خاصة: الثبات الكلي (إعادة الاختبار) ، الاتساق الداخلي (لمفردات الادوات) ، ثبات المحكمين (تقاطع ملاحظاتهم) ، الخطأ المعياري (كمؤشر نسبي: فكلما انخفضت درجته كلما كان الثبات اعلى)...

وسنعرض فيما يأتي المعاملات والمعادلات الإحصائية للنوعين الاولين:

*الاختبار-إعادة الاختبار(Test-retest): يستعمل اساسا لقياس الثبات الكلي ، ويتمثل في تكرار الاختبار في فترتين زمنيتين مختلفتين تحت الظروف نفسها قدر الإمكان. وتكون الفترة المقترحة بين التطبيقين من اسبوعين إلى اربعة

وذلك بخلاف ما يجري عادة في بحوث التخرج بجامعةنا ، حيث لا تطبق عادة لامعايير الصدق ولا معايير الثبات ، سواء تعلق الامر بصدق تمثيل العينة لم بصدق وثبات ادوات جمع البيانات ونتائجها ، مع العلم ان اغلبية هذه البحوث ذات طابع كمي انطلاقا.

ومن اهم معاير الصدق والثبات الكمية واكثرها استعمالا ما يلي:

- بالنسبة للصدق ، تذكر الادبيات المتخصصة العديد من انواعه: الصدق الداخلي ، والصدق الخارجي ، وصدق بنية المحتوى او المفاهيم الاساسية⁷:

فالصدق الداخلي يقتضي ضمان استقلالية الإجابات عن الظروف الخارجية (العرضية كما سبق وصفها) بتجنب مثلا ، كون فترة البحث غير مناسبة ، حدوث تغير في سلوك المبحوثين في فترة الدراسة او خطأ في اختيارهم ، وكون صياغة الاسئلة غير مناسبة... مع الاقتصار في إثبات ذلك على البيانات فقط وبالعد والقياس. ويمكن عكس الاحتمال الاخير الخاص باداة جمع البيانات بالمثل الاتي: إذا اردنا قياس طول لاعبي كرة السلة باستخدام شريط ذي وحدات قياسية سنتمتريه خاطئة فإن بيانات طولهم ستكون خاطئة وكذا متوسط طولهم.

واما الصدق الخارجي فيشير اساسا إلى درجة تعميم النتائج في ظروف مكانية مختلفة. ولذلك فهو يتطلب استخدام مجالات دراسية وتقنيات ومناهج ومواقف اكثر تنوعا وانفتاحا ، مقابل التركيز في الصدق الداخلي على حسن التحكم في وضعيات محددة وفي معطيات بعينها. مما قد يشير إلى ان مستلزمات الصدق الداخلي تتعارض مع مستلزمات الصدق الخارجي: فالتعدد والاختلاف يجعل التحكم في الوضعيات الدراسية صعبا. ومن ثم وجب إيجاد حل وسط بينهما في حالة عدم اقتضاء اهداف الدراسة غير ذلك (بالتركيز على احدهما). ويمكن تشخيص خطأ التعميم (الصدق الخارجي) بالاعتماد على المثال السابق معدلا: إذا تحصلنا على متوسط طول لاعبي كرة السلة باستخدام شريط ذي وحدات قياسية سنتمتريه صحيحة فإنه لا يمكن تعميم هذا المتوسط على كل الرياضيين ، لانه غير نموذجي.

ويجدر ، في الأخير ، بيان العلاقة بين الصدق والثبات في البحوث الكمية ، وذلك بالإشارة إلى أن توافر الصدق قديكون كافيا لتوافر الثبات لكنه بالطبع ليس ضروريا له ، أما الثبات فهو شرط مسبق ضروري ولكنه غير كافٍ لصدق ادوات البحث¹¹. فمثلا يعد ثبات استمارة تحليل المحتوى (باتفاق المحللين على فئاتها) شرطا ضروريا لصدق هذه الاستمارة لكنه يعد غير كافٍ لأنه قد لا يضمن مثلاكون الفئات المتفق عليها تغطي كل المجالات المستهدفة تغطيتها في البحث... وفي هذا السياق ، هناك ما يسمى بـ"الصدق الذاتي" لقياس العلاقة بين الصدق والثبات من خلال حساب "الجزر التربيعي لمعامل الثبات" سواء تعلق الأمر بـ إعادة تطبيق الاختبار (معامل ارتباط بيرسون مثلا) ، التجزئة النصفية (معامل سبيرمان مثلا) أو التباين (معادلة ألفا كرونباخ مثلا) ، أي أنه يساوي الجزر التربيعي لإحدى هذه المعاملات (معامل الثبات)^{1/2} . وبالطبع كلما انخفضت قيمة معامل الثبات انخفضت قيمة الصدق الذاتي لكونها نتاج جزره التربيعي.

وإذا كانت هذه المعايير التحكيمية والإحصائية شائعة في البحوث الكمية ومتوافرة في معظم كتب الإحصاء الاجتماعي^(*) ، فإنه من النادر الكلام عما يقابلها في البحوث الكيفية ، ولذلك فصلنا الكلام عن هذه الأخيرة في الفقرات الموالية:

2- معايير الصدق والثبات في البحوث الكيفية

تسمح الطبيعة الكيفية للبحث بمقاربة فهم شاملة لموضوع الدراسة. لأن البحث الكيفي تاويلي ، وتفسيري ، واستقرائي ، ومتعدد المناهج ، ومعقد ، كما أنه مرن وحساس لخصوصيات المبحوثين وسياقهم الاجتماعي¹². ومنه ، فالمرونة في البحوث الكيفية تسمح للباحث أن يتكيف ويعدل ويبنى منهجيته تدريجيا مع تقدمه في تنفيذ مشروع بحثه. ومع ذلك ، فإن هذا النهج المتميز بالشمولية والتعقيد ، وبالمرونة في تصميمه ، قد يؤدي إلى بحوث ذات مصداقية وموثوقية. والموثوقية تتطلب أن يتم تطبيق القواعد المتعلقة بالصدق والثبات حتى في حالة استخدام تقنيات كيفية ، ولكنها تكون ذات طابع خاص ، بل وتسمية خاصة أحيانا.

لسابيع في الغالب ، وكلما زادت الفترة الزمنية بين الاختبار وإعادة الاختبار (بفرض تساوي العوامل الأخرى) كلما انخفض معدل الثبات. ويتحقق الثبات إذا ارتفع معامل الارتباط (لـ"بيرسون" مثلا) بين قيمتي الاختبارين ، والذي تعبر عنه المعادلتان الآتيتان:

- قيمة الاختبار على قيمة إعادة الاختبار تساوي واحد ،

- قيمة الاختبار ناقص قيمة إعادة الاختبار تساوي صفر.

ونظرا لكون الاختلاف الزمني حساسا وترتبط به عدة مشاكل ، يقترح لتجاوزها الاستخدام المتوازي لاداتي قياس متشابهتين في المحتوى (مع تغيير ترتيب الأسئلة وصياغة بعض كلماتها في الاستمارة مثلا) وفي فترتين مختلفتين أيضا. وهذا الأمر قد يساعد أيضا في تجاوز المشكلة التي طرحها "جوب" (Joppe)⁹ والمتمثلة في إمكانية أن يتحسس المبحوث من موضوع الدراسة المعاد طرحه ، مما قد يؤثر على استجاباته. فلا يمكننا أن نكون على يقين من أنه لا يوجد أي تغيير في التأثيرات الخارجية مثل التغيير في بعض المواقف ، مما قد يؤدي إلى الاختلاف في الردود المقدمة مرتين.

* قياس الثبات أو التناسق الداخلي (Internal Reliability/Consistency)⁽¹⁾: وتستخدم لقياسه عدة اختبارات ، أشهرها معامل "كرونباخ" (Cronbach) لاختبار قياس التناسق بين إجابات المبحوث ، و"كرونباخ ألفا" (قيمته بين صفر وواحد ومتوسطه 0.6) ... ومعامل الارتباط بين نصفي المقياس (Split-Half reliability) أو بين إجابات عينتين جزئيتين ، تحليل الارتباط (لـاختبار الصلاحيات المتزامنة ، والتنبؤية ، والتمييزية...) والتحليل العاملي (متعدد المتغيرات) ومصفوفة الارتباط متعدد الخصائص ومتعدد الطرق...

لما في بحوث تحليل المحتوى فمن معاملات الثبات المستعملة بكثرة معادلة "هولستي" (Holsti) للاتفاق بين محللين (عدد الفئات التي اتفق عليها المحللان على مجموع الفئات التي توصلنا إليها) ليكون الحكم على ارتفاع ثبات تحليل المحتوى إذا كان المعامل مساويا أو يفوق 0.85. وهناك تصنيفات أخرى لثبات التحليل (بما في ذلك تطويرات حديثة لمعادلة "هولستي") لا مجال لذكرها هنا¹⁰.

1.2- الصدق الكيفي

و"متعدية ذاتيا" (Intersubjective) بما فيه الكفاية لكي تكون مفهومة لدى الغير.

- عرض شفاف لاساليب جمع البيانات وتحليلها.

و تقترن شفافية المحتويات والاساليب بصدق النتائج في الاتجاهين: فهي ترفع من موضوعية الباحث وتشجع على مشاركة المبحوث (الفاعل الاجتماعي كما يفضل تسميته في البحوث الكيفية)، فيكون البناء المعرفي التشاركي أكثر صدقية.

وهناك تصنيف شائع آخر عن الصدق في البحوث الكيفية قدمه "ماكسويل"¹⁴، اقترح فيه خمسة انواع من الصدق:

- الصدق الوصفي (Descriptive Validity): اي دقة الوقائع المرصودة كما هي موثقة (موصوفة) من قبل الباحث. وقد يكون ذلك من خلال تطبيق إستراتيجية التقاطع الثلاثي او المتعدد (Triangulation) باستخدام عدة ملاحظين مثلا.

- ك الصدق التوليبي (Interpretative Validity): اي إلى أي مدى يمكن لتأويل ما تمثيل فهم وجهة نظر المجموعة الأساس للمبحوثين والمعاني المرتبطة بكلمات الاعضاء وفعالهم؟ ويمكن التعبير عنه بدقة في تمثيل تصورات المبحوثين للظاهرة قيد الدراسة، والتي قد تتحقق من خلال رصد ردود الفعل البعيدة للمبحوثين (Participants feedback)، للتأكد من مدى تطابقها مع تأويلاتنا لتصوراتهم.

- الصدق النظري (Theoretical Validity): اي إلى أي درجة يمكن ان تكون فيها دلالات البيانات المجعنة متسقة مع التفسير النظري. ويمكن التعبير عن ذلك بالمعقولية النظرية للنتائج، وخاصة إذا تم ذلك من خلال الاحتكام إلى عدة نظريات (Theory triangulation).

- الصدق التقييمي (Evaluative Validity): اي إلى أي مدى يمكن تطبيق إطار تقييمي على مفردات الدراسة؟، وذلك في مقابل إطار وصفية، وتأويلية او تفسيرية.
- والقابلية للتعميم (Generalizability): اي إلى أي مدى يمكن للباحث تعميم "عرض حال" (وصف) أو سياق

بصفة عامة، يشير الصدق في البحوث الكيفية، على غرار البحوث الكمية إلى درجة استقلالية الإجابات عن الظروف العرضية للبحث، ولكنه قد يتأتى كذلك من امانة وعمق وثراء وسعة البيانات وتعددية المصادر؛ إما الثبات فيشير إلى الحد الذي يتم فيه فهمها فهما صحيحا.

ويعتمد صدق البحوث الكيفية، عموما، على حل مشاكلها المتعلقة بالتصميمين الداخلي والخارجي، فالصدق، كما مر معنا، يرتبط اصلا، باحتمال ان يعيد باحثون آخرون بناء استراتيجيات تحليلية اصلية. ومن ثمة، يرتبط الصدق بقابلية تكرار التجارب والاكتشافات العلمية.

ومع ذلك، فإن استعمال الصدق في التصميمات الكيفية (ومنها الاثنوغرافية) يكون معقدا من حيث مؤشر قابلية التكرار، لأن إجراء الدراسة يكون في بيئة طبيعية فريدة عادة، ولا يمكن إعادة إنتاج بعض الحالات المدروسة نظرا لدينامية (حركية) السلوك البشري. ولذلك، تكون الدراسات الكيفية، على العموم، معرضة بشكل خاص لمشكلة صعوبة، لو استحالة، تكرارها.

وفي هذا الصدد، يؤكد كل من "غوتز و لوكونت"¹³ عدم إمكانية إعادة بناء ظروف الدراسة في البحوث الاثنوغرافية بالدقة الكافية، بل يدعيان أيضا ان تكرار استعمال المناهج بدقة قد لا يسفر هو الآخر عن نتائج مماثلة (درجة الثبات).

ومع ذلك، يمكن للباحث، وعلى طول عملية بحثه الإجرائية ان يلتزم بتطبيق التوجيهات الرئيسة الآتية في مجال البحوث الكيفية الاثنوغرافية التي اقترحها هذان المؤلفان، بغية زيادة صدق النتائج:

- موضوعية الدور الذي يؤديهالباحث في مجال البحث.

-تحديد هادف لمجالات جمع البيانات ووصف وضعية لعوان البحث: وحدهم لو مع الباحث وفي سياق المجموعة.

- عرض شفاف للتعريفات أو لوحات التحليل المكونة لطبيعة البحث. مع ضرورة ان تكون هذه التعريفات واضحة

للتعبير عن عدم الموافقة. مما حسن طبعا من درجة صدق عملهما التأويلي.

- الصدق الاتصالي (Validité communicationnelle):

ويتطلب التوافق الكلي أو النسبي بين الرؤى وتحليل الأطراف المعنية بالدراسة (الباحثين والمشرفين على البحث أو الممولين له) مع قابلية تعميم النتائج (أي الإقرار بأهميتها). وهو يعادل ، نوعا ما ، صدق تحكيم الخبراء وثبات المحللين في البحوث الكمية سابقة الذكر ، مع فارق واضح في الكيفية التي تعتمد على التقدير النسبي وليس على التكميم في هذه الحالة.

- الصدق التاريخي (Validité d'histoire) لتقدير

صدق الاستكشافات النوعية في رواية الفاعلين. وذلك من خلال قدرة أداة جمع البيانات على تشخيص التاريخ الحي للباحثين والمبجوثين (فكلاهما يعد جزءا من المادة المجمعة). ولهذا الإجراء نقاط مشتركة مع ما يستعمل في المنهج البيوجرافي -سنذكره لاحقا- من السير الذاتية والحياتية ومن إعطاء ابعاد معنوية للملاحظات والافكار.

ويتحقق صدق رواية المبجوثين من خلال تاريخ تجربتهم وإحساساتهم (الصدق المعيشي / Expérientielle) و"سياقاتها" (الصدق الوصفي لتفاصيل فهم سلوكهم العميق). لما صدق الباحثين فيتحقق من خلال صدق اسلوبهم (استعمال مفاهيم واضحة وعملية في عرض النتائج) وتصوراتهم (عرض النتائج بواقعية ، وتركيز ، وفاعلية من حيث القابلية للفهم).

2.2- الثبات الكيفي

كما يرتبط الصدق بقابلية تكرار الاكتشافات العلمية ، يتعلق الثبات بمدى دقتها. وفي هذا الصدد تعد "بيريز سيرانو"¹⁹ إن تحديد الثبات يتطلب عموما ما يلي: (أ) تقدير مدى تمثيل الاستنتاجات للواقع تمثيلا حقيقيا ، و(ب) تقدير ما إذا كانت البنى المصممة من قبل الباحثين تمثل أو تقيس مقاطع حقيقية من التجربة البشرية.

معين أو مفردات. وهو ما عبر عنه "لنكلن وقوبا"¹⁵ بقابلية التحويل والمقارنة ، ولتمييزه أكثر عن التعميم الكمي أشارا إلى أنه ليس من صلاحية الباحث تقديم مقياس للتعميم والتحويل ، بل تقديم بيانات غنية بما فيه الكفاية لقارئها أو مستعملها حتى يحدد هو بنفسه ابعاد التحويل الممكنة. كما رايها (ص.300) إن هذا يعد نوعا من انواع الصدق الخارجي ، وهو يتضمن لثارا مختارة ، وسياقية ، وتاريخية (ظروف فريدة وغير قابلة للمقارنة) ...

لما "اندراني وكوشون"¹⁶ فيريان إن صدقية التحليل الكيفي قد تتم من خلال معالم منهجية ، معظمها ذي طابع كيفي ويتقاطع مع روحية المقترحات السابقة:

- الصدق التأويلي (Validité Interprétative):

ويتطلب تجنيد الاليات التأويلية الاتية: "التفكير الانعكاسي" (Réflexivité) أو الانطباعات الذاتية ، و"التأمل الباطني" (Introspection) ، و"التفاعل" (Interaction) ، و"التقاطع المتعدد" (Triangulation) مع دراسات مشابهة وباستعمال مناهج ومصادر وتحليلات مختلفة ، مما يؤدي إلى "البلورة" (Cristallisation) في شكل تحليلات متشابهة وأخرى مختلفة ، وهذه الأخيرة تغني الدراسة بالإسهام في تشخيص ابعاد إضافية للدراسة. وهكذا يمكن القيام بالتنقل ذهابا وإيابا (Va-et-vient) بين المعطيات والتحليل.

ويمكن إدراج ، ضمن الصدق التأويلي "بالتقاطع" ، ما اقترحه "بو وفير"¹⁷ من جمع بين ادوات كيفية اثنوغرافية متكاملة مثل الملاحظة والمقابلة المعمقة ، وكذا "دوكن وهيجل"¹⁸ مناستخدام مستويات تحليلية متعددة (فردية/جماعية ، وحالات عادية/ حالات منحرفة تخرج عن شبكة القراءة التحليلية ، ولوقوات عادية/ لوقوات حرجة...). وقد شخصت بعضها عمليا الباحثان في بحثهما الذي استعملتا فيه أداة المقابلات الجماعية والمعمقة بالتركيز على الحالات المنحرفة ، وعلى المقاطع الجزئية من الحوارات التي اجبرتهما على إعادة صياغة وتدقيق افتراضاتهما الأولية وتدعيم شبكة قراءتهما التحليلية بشبكة تكميلية تستكشف الاوقات "الحساسة" وتاخذ بعين الاعتبار بجدية أكبر لغة الجسد ، وبعض طرق مخاطبة الآخر ، وتجنبه بعض الرموز المستخدمة

فبخلاف ما يحدث في حالة إنجاز السير الحياتية كحالات وحيدة ، فإن تراكم عينة كبيرة من القصص البيوغرافية يسمح بإجراء مقارنات وتصنيفات للمبحوثين ؛ أي القيام بتعميمات تخص مجالاً معرفياً معيناً.

إما تقنية السير المتقاطعة فتندرج ضمن رغبة تحقيق نظرة كلية ومصداقية علمية أكبر. ويمكن العمل على تحقيق هذين الهدفين عبر عملية استقصائية تأخذ بعين الاعتبار نسبة العروض الشخصية بمقارنة كل واحد منها بعروض أخرى من داخل نفس الوسط الاجتماعي. فلا يكتفى مثلاً ، بعرض شخصي مهم حول مسيرة مهنية لعامل ما ، بل يقارن عرضه بعروض زوجته وولده الذي قد يكون يمارس المهنة نفسها (هنا متغيري الجنس والجيل وقد يكون غيرهما في حالات أخرى): فالعرض الأول يقدم الهيكل الأصلي بينما يقدم العرضان الآخران الانسجام ، والرأي الآخر ، والتميز... فيموقعان العرض الأول وبثريانه مبرزين العناصر الواقعية والتصورات الشخصية ، لنحصل في الأخير على سيرة ذات مراكز وبؤر متعددة تتميز بعمق إبعاد وموضوعية أكبر ، وذلك في شكل تركيب بيوغرافي معقد لا يعبر فقط عن شهادة حياتية مهنية بل عن توجه شبه واقعي وعميق لقطاع مهني واجتماعي بكامله.

إن المنهج البيوغرافي المطبق بهذا المنظور ، ذي المراكز المتعددة والمهتمة بموضوع واحد ، يمكن تطبيقه كذلك في دراسة أي تشكيلة اجتماعية أخرى ذات إبعاد ديمغرافية محدودة: حي حضري ، أو قرية صغيرة ، أو جمعية خيرية للمهاجرين ، أو تأسيس حزب سياسي ما ، أو تجربة ممارسة إعلامية في بلد ما... إن هذا الالتقاء يحدث بالضرورة بعض الإشباع ، لأنه يسمح لنا بفرز الخصائص الذاتية الملزمة للمبحوثين عن العناصر المشتركة والمهيكلية للظاهرة الاجتماعية²¹.

خاتمة

تجدد الإشارة في الأخير إلى أن مسالتي الصدق والثبات (والتعميم والموضوعية...) في بحوث الكيفية تطرح بعض الإشكالات فيما يتعلق بكيفية تقييم نموذج البحث الكيفي.

وفيما يخص هذا النوع من البحوث ، تعتمد درجة الثبات الداخلي على تقنيات جمع وتحليل البيانات. وهو ما تؤكد المؤشرات الآتية:

- التعايش مع الفاعلين الاجتماعيين (المبحوثين) وتمديد عملية جمع البيانات لفترات طويلة لإتاحة الفرصة لإجراء تحليلات ومقارنات مستمرة لهذه البيانات.

- تكييف المقابلات المنجزة ، بعدها واحدة من المصادر الرئيسة للبيانات ، مع مختلف فئات الفاعلين الاجتماعيين.

- يجب القيام بالملاحظة بالمشاركة ، كمصدر أولي لبيانات الباحث ، في البيئات الطبيعية التي تعكس واقع تجارب حياة المشاركين بمزيد من الدقة.

- في جميع مراحل نشاطه ، يخضع الباحث نفسه للرصد الذاتي (الرقابة الذاتية) ، من خلال عمليتي التشكيك وإعادة التقييم المستمرين. وتسمى هذه العملية عند "غوتز ولوكونت"²⁰ "الذاتية المنضبطة". وقد يخفف ذلك من أثر ضعف الرصد الخارجي والضبط الإحصائي (القبلي ، الأني والبعدى) المستعمل في البحوث الكمية.

وفي الوقت نفسه ، يمكن أن نحصل على تقديرات الثبات في البحوث الكيفية بواسطة وسائل مختلفة ، مثل التقاطع الثلاثي أو المتعدد (Triangulation) والتشبع (Saturation) المعلوماتي وتحكيم باحثين آخرين...

ويعد التقاطع المتعدد على وجه الخصوص عملية تجمع بين منهجيات مختلفة في دراسة الظاهرة نفسها. فهي تستهدف زيادة الثبات باستخدامها عمليات مركبة ، واستراتيجيات مختلطة وتقاطع معلوماتي من مصادر مختلفة من البيانات: ناس ، وادوات ، ووثائق أو مزيج منها كلها.

ولذلك نجد من الشائع استعمال الدراسات الكيفية للمنهج البيوغرافي وتقنية السير الذاتية المتعددة في شكل استبيان تعتمد فيه ، عند اختيار المبحوثين ، على مقاييس العينة التمثيلية (باستعمال مثلاً نمطية تصنيفية للمبحوثين انطلاقاً من متغيرات محددة مسبقاً) ، أو على تقنية الإشباع من كثرة الحالات المدروسة. ولهذه التقنية استعمالان أساسان هما: السير المتوازية والسير المتقاطعة.

للموثوقية أو الثبات / Reliability)، والتأكيدية / Confirmability (بديلا عن المفهوم الكمي للموضوعية / Objectivity).

وعلى العموم ، ومن حيث مصداقية البيانات الكيفية ، يجب أن تكون للبيانات المجموعة علاقة مثالية مع الواقع. ولتلبية هذا المطلب ، قد يستخدم التقاطع الثلاثي /المتعدد او المتنوع /، كما تقترح ذلك معظم المقاربات الكيفية. وبناء عليه ، ينصح بالجمع بين العديد من تقنيات جمع البيانات (خرائط المفاهيم ، والمقابلات الفردية والجماعية ، ودفتر الملاحظات ، والاجتماعات غير الرسمية...) للتعويض عن التحيزات الكامنة في كل منها. ولكن يبدو إنه من الصعب تنميط كل إجراءات "الموثوقية" ، وأن تعدديتها وتقاطع بعضها (في مقترحات المناهجة الكيفيين) ضرورة كيفية ، مع الإشارة إلى أن الخيارات المتخذة بشأنها يجب أن تظل كيفية ، أي تتكيف مع سياق كل بحث وكل تخصص.

فمنهم من اقترح تعويض هذه المصطلحات التقييمية بأخرى تتناسب أكثر مع طبيعة البحوث الكيفية ، ومنهم من دعا إلى تكييف مضامينها وإثرائها تبعاً لطبيعة البحوث (الكمية والكيفية) ، على أساس أن لكل نوع من أنواع البحوث شكلاً معيناً من أشكال التقييم ، والصدق والثبات والتعميم...:

وفي إطار التوجه الأول خلص كل من "لونيوغوزي وكوليس" ²² إلى أن جزءاً من الحل يتمثل في إعادة تصور صدق المفاهيم التقليدية عن طريق تسميات جديدة ²³.

وعلى سبيل المثال ، اقترح "لينكولن وقوبا" ²³ الأنواع البديلة الآتية: المصدقية /Credibility(بديلا عن المفهوم الكمي للصدق الداخلي/Internal validity) ، والقابلية للتحويل والمقارنة / & Transferability Comparability(بديلا عن المفهوم الكمي للصدق الخارجي والتعميم / External validity & Generalizability)، والاعتمادية / Dependability(بديلا عن المفهوم الكمي

الهوامش

1. Ponterotto & Grieger: Effectively communicating qualitative research. *The Counseling Psychologist*, 35(3), 2007, p.429.
2. منابو الفضل: "النظرية الاجتماعية المعاصرة: نحو طرح توحيد في مبادئها وتنظير ودواعيها بالبدل"، مجلة إسلامية المعرفة، العدد 6، واشنطن، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 1996، ص.106.
3. Maria José Sosa Solórzano: Tipos de investigación según el enfoque epistemológico, 2006. In www.monografias.com/trabajos37/metodologia/metodologia2.shtml. 27/6/2013.
4. Atkinson Michael: *Key Concepts in Sport and Exercise Research Methods*, London, Sage Pub. 2012, p.165.
5. Vasilachis de Gialdino, Irene: Los fundamentos ontológicos y epistemológicos de la investigación cualitativa, *Forum: Qualitative Social Research*, Volumen 10, No. 2, Art. 30 – Mayo 2009.
6. Latiesa, Margarita (ed.): *El pluralismo metodológico en la investigación social: Ensayos típicos*, España, Universidad de Granada, 1991. p.96.
7. Bachelet R. : *Analyse et traitement de données : Validité et fiabilité*, www.CreativeCommons.org, 07/11/2012. p.8.
8. *Ibid*. p.17.
9. Joppe, M. (2000). *The Research Process*. Retrieved December 16, 2006, from <http://www.ryerson.ca/~mjoppe/rp.htm>.
- (*) إلا أن هناك من يرى أن الاتساق الداخلي لمفردات أداة جمع البيانات معياراً من معايير الصدق، لأنه يساهم نسبياً في تحقيق صدقية النتائج.
10. Holsti C.R.: *Content analysis for social science and humanities*, New York, Addison, wesley, 1969. & Krippendorff, Klaus: *Content Analysis*, Beverly Hill, CA: Sage, 2nd Ed. 2004.
- (**) ومن المعروف أن بعض الباحثين الجامعيين يستعينون بمختص في الإحصاء (أو بمركز حسابات) ليقوم بالعمليات الإحصائية المرتبطة بعمله، مع العلم أن بعض برامج المعلوماتية (مثل SPSS) تيسر ذلك أيضاً. وهو أمر محبذ على غرار الاستعانة مثلاً بمدقق لغوي أو مترجم، الخ...
11. Cohen L, Manion L. & Morrison K.: *Research method in education*, Routledge, UK, 2007, p. 133.
12. Vasilachis de Gialdino, Irene: Op. Cit.
13. Goetz, J. Y Lecompte, M.: *Etnografía y diseño cualitativo en investigación educativa*. Madrid: Morata. 1988.
14. Maxwell, J. A.: "Understanding and Validity in Qualitative Research". *Harvard Educational Review* (1992), 62(3), 279-299.
15. Lincoln, Y. S., & Guba, E. G.: *Naturalistic inquiry*. Beverly Hills, CA: Sage, 1985. p.316.
16. Andréani J.C., Conchon F. : Les méthodes d'évaluation de la validité de enquêtes qualitatives en marketing, Actes du 3^{ème} congrès International sur les tendances du Marketing en Europe, 28-29 novembre, Venise, Italie. 2003.
17. Beaud, Stéphan & Weber, Florence : *Guide de l'enquête de terrain, la découverte*, Paris XIII^e, 2003, Chap.4-6.
18. Duchesne, Sophie & Haegel, Florence : *L'enquête et ses méthodes : les entretiens collectifs*, Nathan, collection 128, juin 2004, pp. 117-122.
19. Perez Serrano, Gloria: 'La pedagogía social en España', a *Revista de Pedagogía Social*. Valencia, núm. 3, febrer 1988, pp. 109-121.
20. Goetz, J. Y Lecompte, M.: Op. Cit.
21. دليو فضيل: المنهج البيوغرافي: استعمال السير الحياتية في عملها الاجتماع، مجلة العلوم الاجتماعية، المجلد 27، العدد 2، الكويت، 1999.
22. Onwuegbuzie Anthony J. & Collins Kathleen M. T.: A Typology of Mixed Methods Sampling Designs in Social Science Research. *The Qualitative Report* Volume 12 Number 2 June 2007, 281-316 <http://www.nova.edu/ssss/QR/QR12-2/onwuegbuzie2.pdf>
23. Lincoln, Y. S., & Guba, E. G.: Op. Cit. p.316.